المبحث الثاني

المذهب الجماعي

وفيه المطالب التالية:

المطلب الأول: حقيقة المذهب الجماعي.

المطلب الثاني: أبرز رواد المذهب الجماعي.

المطلب الثالث: فلسفة التربية الحديثة في المذهب الجماعي.

المطلب الرابع: نقد المذهب الجماعي.

المطلب الأول

حقيقة المذهب الجماعي

المذهب الجماعي أو النزعة الجماعية: هو المذهب المضاد لمذهب الفردانية، وهو قائم على إلغاء الفرد، وتسخيره لخدمة ما هو عام وشمولي، فيرى أصحاب هذا المذهب أن الإنسان لا يمكنه تحقيق وجوده إلا في الامتثال للمجتمع والدولة، فإنسانية الإنسان ـ عندهم ـ لا يمكن تحقيقها إلا بامتثال أفكار المجموع، وبقدر تمثل الفرد عواطف ومعتقدات ومبادئ سلوك المجتمع بقدر ما

تتحقق إنسانيته[١].

يقصد بالجماعية: ميل الإنسان إلى العيش في الجماعة، والتعايش معها[٢].

يرى أصحاب المذهب الجماعي أن الإنسان جماعي النزعة، وأن الواجب على الفرد أن يغمس نفسه في المجتمع، ويفنى فيه من أجل صالح المجموع.

ويرون أن الوجود المستقل للأفراد عن الجماعة وهم من الأوهام[٣].

ويبالغ أصحاب المذهب الجماعي في إبراز كيان المجتمع حتى يجعلون منه كياناً مقدساً، والفرد لا قداسة له ولا كيان، ولا يحق له أن يملك، ولا يحق له أن يصوغ أفكاره وعقائده وأخلاقه وتقاليده. لا يحق له أن يعترض على عمل المجتمع، أو يصفه بأنه خطأ أو صواب. إنهم في الحقيقة يؤلهون المجتمع، ومن يصنع ما

---

(١) انظر الفردانية (٣١٤ ـ ٣١٦).

(٢) انظر: شخصية المسلم (١٢). انظر: علم الأخلاق، ألكسندر تيتارينكو (١٥٠ ـ ١٥٢).

(٣) انظر: مفهوم إسلامي للتاريخ (٦٨، ٦٩)، ضمن كتاب «العلوم الطبيعية والاجتماعية من وجهة النظر الإسلامية».

يحلو له، ويجعلون الفرد عبداً خاضعاً له[١].

وقد قام المذهب الجماعي لعدة أسباب أهمها:

١ ـ رد فعل للمذهب الفردي الرأسمالي. يقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنه جموح جديد ينشأ من رد فعل لجموح قديم، وداء جديد تعالج به البشرية من داء قديم. وتحطيم لخصائص الإنسانية في جانب لإنقاذه من تحطم خصائصه الأساسية في جانب آخر»[٢].

٢ ـ ولأنهم يرون أن الذات الإنسانية محدودة بالزمان والمكان، بخلاف الجماعة، وأن الفرد إنما وجد من أجل نفع الجماعة، ولذلك فالقوى الاجتماعية هي التي تشكل الفرد من أوله لآخره، وليس لكيان الفرد الداخلي أي دور[٣].

(١) انظر: جاهلية القرن العشرين (١٣١).
(٢) الإسلام ومشكلات الحضارة (١٠٤)، وانظر: في فلسفة الحضارة (٢٣٤).
(٣) انظر: مفهوم إسلامي للتاريخ (٦٩).

المطلب الثاني

أبرز روَّاد المذهب الجماعي

١ ـ يعتبر جان جاك روسو، الذي صاغ نظرية العقد الاجتماعي الصياغة النهائية، رائد المذهب الجماعي، حيث يرى أنه بمقتضى العقد الاجتماعي يتنازل كل فرد عن نفسه وعن حقوقه للإرادة الكلية، ويصبح كل فرد جزءاً لا يتجزأ من الكل، جاء في المعجم الفلسفي لصليبا: «العقد الاجتماعي: اتفاق افتراضي بين أفراد المجتمع يوجب على كل منهم وهو في الحالة الطبيعية أن يعهد في شخصه، وفي كل ما لديه من قدرات إلى الإدارة العامة

التي تنتظم بها حياة الكل، قال روسو: إن الإنسان يربح بالعقد الاجتماعي حريته المدنية، وإن خسر به حريته الطبيعية»[١].

٢ ـ ويعتبر هيجل ـ أيضاً ـ من أوائل من دعا للمذهب الجماعي، ونادى بأن يكون الأفراد تروساً نافعة في أجهزة المجتمع المعقد، وأن يفنوا فيه من أجل صالح المجموع.

فهيجل هو صاحب الفكرة المطلقة والروح الكلية التي تتألف منها الأرواح الفردية، فالفرد بأخلاقه وأفعاله إنما يعكس التطور الكلي للروح المطلقة، ويرى أن الدولة هي الوجود الحقيقي والعقلي الذي تتجسد فيه الروح الكلية أو الفكرة المطلقة، فالدولة وحدها تحقق قيمة الحياة، ولا بد أن يخضع الفرد خضوعاً تاماً كلياً لسلطة الدولة[٢].

٣ ـ وقد قام ماركس بهذا المذهب بكل قوة، ودعا المجتمع أن يكبت بوحشية الذاتية الفردية بمساعدة الذاتية الجماعية، حتى يثور الإنسان ضد ضميره الأخلاقي،

---

(١) (٢/ ٨٢)، وانظر: الفردانية (٣١٦ ـ ٣٢١).
(٢) انظر: المصدر السابق (٣٢٤).

وضد الحقيقة والعدل، وضد رب الوجود[١].

يقول ماركس: «إذا كان الإنسان كائناً اجتماعياً بطبيعته، فإنه يترتب على ذلك أنه لا يمكن له أن يطور طبيعته الحقة إلَّا في المجتمع، فعل قوة طبيعته ينبغي الحكم لا في ضوء قوة أفراد منعزلين، وإنما في ضوء قوة المجتمع بأسره»[٢].

يقول د. الكحلاني: «وهكذا نجد أن الماركسية فلسفة جماعية، تؤكد أولوية الطبقة ووعيها على الفرد ووعيه، فالماركسية لا تنكر أنها ذات نزعة جماعية بل نجدها تدافع عن جماعيتها هذه، وترى أنها جماعية مختلفة عن الجماعية القديمة التي تكرس العبودية للسيد الاقطاعي، أو حتى جماعية العمال الذين يخضعون لسيطرة صاحب رأس المال، بل إنها جماعية تجمع بين الذاتية والموضوعية معاً، لأن سمة الماركسية هو الجمع بين المتناقضات، بل نجدها تهاجم من يرون استحالة الجمع بين الفردية والجماعية[٣].

---

(١) انظر: مفهوم إسلامي للتاريخ (٦٩)، وانظر: آفاق الفلسفة (٣٨٧).

(٢) نقلاً عن الفردانية (٣٣٥).

(٣) المصدر السابق (٣٣٧).

٤ ـ وكذلك يرى هذا المذهب عالم الاجتماع «دور كايم»، ويقول بأن المجتمع قوة قائمة بذاتها، غير نابعة من كيان الأفراد، ومؤثرة في الأفراد بإرادة مستقلة عن إرادتهم[(١)].

يقول د. حسن الكحلاني: «يرى دور كايم أن الإنسان لا يستطيع التخلي عن اجتماعيته، بل عليه أن يخضع للجماعة، وما تفرضه عليه، ويمضي دور كايم إلى حد أبعد من ذلك، إذ يرى أن الإنسان لا يحقق حريته إلَّا مع الجماعة، ولا مكان لمن يدعو لحرية الفرد خارج الجماعة»[(٢)].

٥ ـ وقد قامت الشيوعية في الشرق على هذا الأساس، فوسعت في دائرة الجماعة (الدولة)، وحجرت على نشاط الأفراد إلَّا فيما يتعلق بالنشاطات الحسية الغليظة، ومنعت مشاركتهم الفعلية في سياسة الحكم وسياسة المجتمع، وفرضت عليهم النظم بدعوى أنها أعرف منهم بمصالحهم[(٣)].

---

(١) انظر: دراسات في النفس الإنسانية (١٣٩).

(٢) الفردانية (٣٣٢).

(٣) انظر: منهج التربية الإسلامية (١٦٢ ـ ١٦٣)، وانظر: تقاليد أول أيار، ألكسندر خرامتسوف.

المطلب الثالث

فلسفة التربية الحديثة في المذهب الجماعي

يرى أصحاب المذهب الجماعي ـ دور كايم وأمثاله ـ أن وظيفة التربية هي نقل الثقافة الاجتماعية إلى الفرد الناشئ. فالتربية تبدأ بالمجتمع وتنتهي بالفرد.

إنهم يرون أن الحياة الحقيقية النافعة تكون بقيام المجتمع وتوثيق روابطه، وبالتالي فالمجتمع يحتل عندهم المكانة الأولى ثم يأتي بعده الفرد، فوظيفة التربية يجب أن تكون منصبة في تطوير الروح الجماعية عند الأفراد.

فمحور أهداف التربية في المذهب الجماعي هو المجتمع وليس الفرد.

كذلك يرى أصحاب المذهب الجماعي أن مسؤولية التربية تقع على الدولة، والتي عليها أن تعد المعلمين والمدارس إعداداً مناسباً للقيام بالوظيفة بالشكل الذي ترغب به الدولة[١].

يهتم أصحاب المذهب الجماعي في تربيتهم للأفراد بتقديم معلومات محددة مناسبة للعمل والوظيفة التي يقوم بها أولئك الأفراد. ويهتمون بقضية التعويد على الإذعان والخضوع للسلطة، ويرن أنها من أهم مقومات نجاح الفرد، فالتربية للعمل في المصانع، لا تتطلب عمالاً يناقشون في الصواب والخطأ والحقوق والواجبات. ولذلك فإن علاقة المعلم بتلاميذه، والمدير بمعلميه علاقة تنفيذية، قائمة على السلطة والتعليمات، وإصدار الأوامر، وتنفيذ القرارات، مثل التربية العسكرية التي تجفف إرادة الفرد، وتجعله ينفذ الأوامر دون تساؤل أو تفكير[٢].

(١) انظر: أهداف التربية الإسلامية (٤٦٧، ٤٦٨).

(٢) انظر: المصدر السابق (٤٧١، ٤٧٢).

المطلب الرابع

نقد المذهب الجماعي

١ ـ يقوم المذهب الجماعي بالاهتمام بجانب من الإنسان ـ بغض النظر عن كيفية ـ وإهمال جانب آخر فيه، وهو الجانب الفردي، وبالتالي يختل كيان الإنسان، ويفقد سعادته[١].

٢ ـ إن معاملة الفرد على أنه حركة لا إرادية في أيدي المجتمع الشديدة إنكار للعلاقة الفردية بين العبد

(١) انظر: الإسلام بين المادية والإسلام (١١١).

وربه، وهي علاقة فطرية ضرورية للإنسان، لا صلاح للفرد بدونها، والعبد مسؤول فرداً يوم القيامة عن أعماله، ولذلك فليس هو ملك للمجتمع يصرفه كيفما يشاء، بل له القدرة والاختيار في أعماله وأقواله[(١)].

٣ ـ إن اعتبار الجماعة أسمى من الأفراد خطأ، وإنما خلقت الجمعيّة كقوة تكميلية للأفراد[(٢)].

٤ ـ إن المذهب الجماعي يقضي على تميز الأفراد، ولا ينشئ إلا مجتمعاً مستضعفاً خانعاً، لأن أفراده أصفاراً لا وجود واقعي لهم، ليس لديهم القدرة على رفع ظلم عن مظلوم، لا بكلمة ولا بفعل، طالما أن المجتمع أراد ذلك. أي: الحاكم والسلطان على الحقيقة[(٣)].

٥ ـ إن الواقع المحسوس يرد على المذهب الجماعي كما يرد على المذهب الفردي وهو أن كل فرد هو في ذات الوقت كائن مستقل، وعضو في جماعة، ولا تكاد توجد لحظة واحدة ولا فكرة ولا عمل يمكن أن يزاوله الفرد بإحدى صفتيه دون الأخرى، وإن بدا في ظاهر الأمر أن هذا مستطاع[(٤)].

---

(١) انظر: مفهوم إسلامي للتاريخ (٧١).
(٢) انظر: مفهوم إسلامي جديد لعلم الاجتماع (٥٠).
(٣) انظر: منهج التربية الإسلامية (١٦٤).
(٤) انظر: الإنسان بين المادية والإسلام (١١٢).